عاشقة الأحذية

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ محمود دياب خيرت

فى صباح يوم مبكر كانت سيدة محجبة تقطع طرقات الاسكندرية بخطى مسرعة وقلبها يدق وجسمها يرتجف، حتى إذا بلغت نافذة اللجأ أخذت تتلفت حولها، فلما لم تر أحداً يتعقبها أخرجت من إزارها طفلاً حديث الولادة ووضعته على الحامل المثبت عند قاعدة النافذة ثم دقت الجرس، وبعد لحظة امتدت يدان فالتقطتاه ثم اختفتا. وعند ذلك اطمأن قلبها وعادت أدراجها

وكان بالدار سيدة منطرحة فوق سريرها وعلى وجهها أثر الشحوب والضعف؛ فلما أقبلت عليها تلك السيدة المحجبة سألتها فى لهفة، فقالت: انتهى الأمر على أحسن حال وأصبح إلى جانب أطفال اللجأ. وعندئذ سرّى عنها وشعرت كأن حملا ثقيلا كان يضغط على صدرها قد ارتفع وزال

وكانت هاتان السيدتان شقيقتين من أسرة عريقة، إحداهما وهى التى كانت تحمل الطفل متزوجة من أحد أعيان الاسكندرية، أما أختها فتقيم مع أبويها بالقاهرة ولم يسبق لها عهد بزواج؛ إلا أن فتى من فتيانها وقع نظره عليها فأولع بها وأخذ يطاردها ويتودّد لها وينفخ من روح غوايته فيها، وهو كلما تلاقيا يفتح أمام عينيها آفاقاً جديدة مشرقة بالحب ونعيمه. وكان يقسم لها بأنه لن تطيب له الحياة إلا بها، ولن يتزوج فى حياته من سواها، حتى إذا أفاقت زمام عفتها من يدها وزلّت قدمها أدار لها ظهره وأنكرها واختفى عن عينيها

ولقد أحست بعد أشهر بجنينها يتحرك فى أحشائها فخشيت أن يفتضح أمرها وأسرعت إلى شقيقتها بحجة قضاء فصل الصيف عندها، فما كترت لها تلك الدار لتضع حملها فيها إلى أن تم الأمر على الصورة التى مرت بنا

وقد يلوح غريباً أن (إحسان) تلك الفتاة البائسة الرقيقة يهون عليها أن تقذف بهذا الطفل البرئ الضعيف وهو ثمرة حشاشتها إلى هذا المصير المجهول، وأن يتحجر قلبها إلى حد ألا تذرف عليه عيناها دمعة واحدة وهى تسلمه لأختها. ولكنها فى الواقع كانت لا تزال تحت سلطان ذلك الموقف الرهيب الذى أقل ما فيه أنه كان يجرّ عليها وعلى أسرتها عار الأبد. حتى إذا مضى شهر على بعده عنها وقد هدأت أعصابها من تأثير الجزع الذي كان استولى عليها استيقظت فى نفسها عاطفة الأمومة الصارخة فانطلقت دموعها من عينيها غزيرة حارة، وأخذت ترجع باللائمة على طيشها وتسرّعها وترى أن ذلك العار الذى خشيته كان أهون عليها من أن تعبث بطفلها مثل ذلك العبث الأثيم. ألم يك ولدها؟ ألم يك قطعة منها؟ لقد أصبح بينها وبينه بعد ذلك حجاب قاس، فلم يعد أمامها تضمه بنظراتها وتغذوه بحنانها وتضمه إلى صدرها الدافئ وهى تهزه بيديها

وتناجيه . لقد حُرمت لذة إرضاعه ، ولذة الاستماع إلى صياحه ، ولذة النظر إليه وهو يحبو ويمشى ، ولذة أول كلمة تخرج من بين شفتيه اللتين فى حمرة المرجان : أمى !

أما هو فقد أصبح يندفع إلى غير صدرها ويرتضع غير ثديها، وما كان المرضعات إلا أجيرات يمنن لبنهن ولكنهن لا يمنن الحنان، فإنهن إلا أمهات صناعيات .

كانت إحسان لذلك لا يغمض لها جفن ولا يهنأ لها طعام ولا شراب. تمر صورته بعينيها فى كل لحظة من لحظات النهار، وتراه فى أحلامها كأنه يمد ساعديه الصغيرين إليها ويندفع إلى صدرها وكأنه يناديها . حتى إذا ما استيقظت يوماً من الأيام كان حزنها قد بلغ غايته فانطلقت نحو الملجأ وقد وطنت نفسها على أن تعود به .

وقبل أن تأخذ فى سبيل ما اعتزمته حملت معها كثيراً من الحلوى والأقمشة لتتقدم بها كهدية لأطفال الملجأ ، وقد رحب بمقدمها سيداته ورجاله وتقبلوا تلك الهدية منها مع التقدير والشكر . وهكذا أخذت تطوف بالغرف وتتفقد أولئك اليتامى الذين كشر فى وجوههم الحظ لعلها تعثر من بينهم على طفلها ولكنها لم توفق

ومن الطبيعى أنها كانت تتحاشى أن تبوح بالغرض الذى جاءت من أجله إلا إذا تمكنت من الاهتداء إليه ، فلما يئست أخذت تستفسر من رئيسة الملجأ عن حديثى الولادة الجدد وعن الاجراءات التى اعتاد الملجأ اتخاذها نحوهم، فهدتها إلى أربعة عشر طفلا جيء بهم فى أيام مختلفة، منهم خمسة فى اليوم الذي حملت أختها صغيرها إليهم فيه . فلما تأملتهم وجدت من بينهم اثنين بشرتهما سمراء ولكنها لم تعرف ولدها من بين الثلاثة الباقين ، لأن الأطفال على أثر ولادتهم يكونون أشبه بقطع حية من اللحم يصعب تمييز بعضها عن بعض ، إذ يكون الشبه بينهم وبين ذويهم لا يزال بعيداً، فهم فى ذلك مثلهم كمثل الصورة السالبة أول ما يبدو منها عند التظهير خطوط أولية يتلوها شيئاً فشيئاً أنصاف ظلال فظلال كاملة وعند ذلك يكون الشبه قد تم واستقر

ولا تسل عن الصدمة التى أصابتها فى تلك اللحظة التى علقت كل آمالها عليها وهي أمام ولدها وليست أمامه، فلبثت حائرة بين هؤلاء الأطفال الثلاثة ولا سيما أن اثنين منهم عيونهما زرقاء كعينى طفلها فأيهما هو الذى حملت به ووضعته وقاست وتقاسى عذاب الدنيا ومرارتها فيه ؟ إنها أصبحت أمًّا لكليهما، فإما أن تأخذهما معاً وإما أن تدعهما. على أنها علمت أن هذا الأمل بعيد أيضاً وأن من دونه مباحث وتحريات وتحقيقاً يثير من جديد تلك الفضيحة التى أمنت شرها وتخلصت منها، ولذلك استأذنت وانصرفت وهى حزينة باكية كثيرة الهموم

وكان أبواها طاعنين فى السن تتغلغل فى جسميهما الأمراض فقضيا نحبهما ، ولذلك انتقلت

إلى الاسكندرية لتعيش فيها على مقربة من أختها

بعد ثمانى عشرة سنة

كانت إحسان فى موطنها الجديد تشغل نفسها بالمطالعة وتقضى كثيراً من وقتها فى الاحسان إلى الفقراء كما أنها لاتنسى زيارة اللجأ وحمل الهدايا إليه . وهى كلما قصدته وقفت عند بابه خاشعة كأنها أمام ضريح يضمّ فى جوفه رفات ضحايا الأقدار والحظوظ

وكان من النظم المتبعة فى اللجأ أن كل لقيط يأنس فيه القدرةَ على التعلم والاستعداد له يلقّنه مبادئ القراءة والكتابة ثم يخصّصه لحرفة من الحرف تساعده فيما بعد على تحمل أعباء الحياة ، وكان من نصيب ذينك الطفلين المتشابهين صناعة الأحذية

وكم كانت لوعتها حين ذهبت إلى اللجأ فى يوم من الأيام فلم تجدهما ، لأنهما بإرحاء بعد أن أصبحا قادرين على العيش بعيدا عنه . نعم كانت مفاجأة قاسية وقد كان هذا المكان قبلها يقيم فلذة كبدها بين أركانه . أما الآن فقد أصبح أمامه هذا الشتر الفسيح المترامى الأطراف فكيف تجده وكيف تهتدى إليه ؟

ولقد ظلت احسان سنواتٍ تجوب أزقته وطرقاته وعيناها إلى الحوانيت والمخازن ، حتى إذا وجدت من بينها مصنع أحذية أسرعت إليه ، ولكن سرعان ما تتركه يائسة حزينة ولم تجد طلبتها فيه

وأخيرا بعد أن مضى على ذلك الحادث ثمانى عشرة سنة عوّلت لآخر مرة على أن تقصد إلى حى محرم بك ، حتى إذا لم تعثر عليه فيه لزمت دارها واستسلمت لهمومها

ولقد عثرت فى ذلك الحى على حانوت بجانبيه خلف الزجاج أحذية مصفوفة للسيدات والرجال والأطفال ولكنها لم تجد به أحداً فلبثت لحظة ثم همت بالانصراف عنه إلى غيره ، ولكن دافعاً من نفسها استوقفها . وفى تلك اللحظة رأت فى الجانب المقابل للحانوت فتى يسرع نحوها ، فلما رآها دهش وأخذ يسائل نفسه أين سبق له رؤية هذه السيدة . ثم تذكر أنها كثيرا ما كانت تزور اللجأ وتحسن إلى أطفاله ، وعندذلك شعر بالسرور يتمشى فى نفسه فقال لها : « خيرا يا هانم » . وما كادت عيناها تقعان عليه حتى انتفض جسمها وخفق قلبها فاندفعت إلى داخل الحانوت وطلبت إليه حذاءين من نوع تلك الأحذية التى رأتها

وعند ذلك تناول شريطا من الجلد قريبا منه وشرع فى قياس قدميها وهو يقول : إنك ستسرّين كثيراً من أحذيتنا يا سيدتى . فاننا مع جودة الجلود التى نقطعها منها ومراعاة الدقة فى تفصيلها لا نجرى خلف الربح الكثير لكى نكسب ثقة الناس فينا وإقبالهم علينا . وكانت فى خلال حديثه تنظر إليه من طرف خفى فأخذت تسأله :

— هل لك زمن طويل فى هذا الحانوت ؟

— ست سنوات يا سيدتى كنت عاملا

فيه أما الآن فقد أصبح الحانوت لى

— ومن الذى عنى بتعليمك هذه الصناعة . أبوك ؟

وعندذلك أرسل زفرة طويلة ثم قال: لاياسيدتى إنما هو الملجأ . . . وكم كانت المرارة التى أحسّها عند ذكر هذه الكلمة ! على أنها قابلت هذه الزفرة بأخرى مثلها احتبست فى فمها ، ولم يعد يساورها شك فى أن هذا الفتى هو أحد ذينك الطفلين اللذين كانت تزورهما فى الملجأ ، وأنه ولدها وكل ملامحه تشير إلى ملامح أبيه من عينيه إلى أنفه إلى فمه وإلى نبرات صوته

وكان قد طلب فى ثمن الحذاءين مائة وخمسين قرشاً فدفعت إليه جنيهين فى سبيل أن يبذل فيهما كل فنه وعنايته، ثم انصرفت وهو يكاد يرقص طربا وقد حصل على إيجار الشهر المتأخر عليه فلم يعد يضايقه المالك بسببه

وبعد عشرين يوما عادت إليه لاستلام الحذاءين وأوصته بالشروع فى حذاء ثالث من نموذج آخر . وهكذا كانت لاتمر شهر إلا وتوصيه باعداد حذاءين جديدين حتى أنه كان يقول فى نفسه : لو أن هذه السيدة تستمر على ذلك فلن أتعرّض يوما ما إلى مضايقة مالك الحانوت بسبب الايجار . كما أنه وجيرانه كانوا يستغربون أمر هذه السيدة وولعها بالأحذية إلى هذا الحد ، حتى لقد أطلقوا عليها اسم « عاشقة الأحذية »

وفى يوم من الأيام بعد أن انتهى من حذائها الجديد كلفته بأرساله إلى منزلها فحمله إليها بنفسه، وكانت قدنهيأت لطعام العشاء فدعته إلى مشاركتها فيه فقبل ولكن بعد تردد منه وإلحاح منها . وبعد أن انتهيا أخذت تتحدث إليه :

— لعلك لا تجهل من هى التى دفعت بك إلى ذلك الملجأ ؟

— وهل كان هذا ممكنا ياسيدتي وقد كنت وقتئذ مشدودا فى قماطى حديث الولادة ؟ إننا معاشر اللقطاء لا نعرف لنا أبا ولا أما . وكل ما نعرفه عن أنفسنا أننا من نفايات الخلق لفظنا المجتمع وأصبحنا من طينة غير طينة الناس . وكثيرا ما كان يزور الملجأ سيدات معهن أولادهن فأنظر إليهم والأسى يرجّنى والدموع تتسابق فى عينى . أما سبب هذا المصير الذى كان من نصيبنا فلعله لا يخفى عليك يا سيدتى . إننا لم نكن غير ثمرة ملوثة من ثمار الزنا والدعارة. إن لنا أمهات، ولكن أولئك المرضعات فى عينى خير منهن لأنهن يعوّضن علينا ذلك اللبن الذى حرمتنا إياه . ومع ذلك فقد كنا أحوج إلى لبن آخر لا نجده عند أولئك المرضعات . كنا أحوج إلى الحنان، لبن الروح، ولكن حيل بيننا وبينه. وفوق ذلك كان علينا أن نشق لنكفر عن خطيئات أمهاتنا

— ومن يدريك أن أمك الآن تبكى بُعدك وتبحث عنك ؟

ولم تبحث عنى يا سيدتى الطيبة وأنا لا أعرفها ولن تهتز جوارحى لها ؟ لقد قطعت علىّ طريق

العودة إليها ومهدت السبيل أمامي لانكارها ونسيانها. كم كنت أودّ لو أنها أبقت عليّ فأحمل عارها وأغفر زلتها والعصمة لله وحده، ولكنها أبت عليّ حتى ذلك فباعدت بينها وبيني، وأغلقت فؤادها من دوني فحرمتني نصيبي عنده من نعمة الحنو الذي غرسته فيه يد الله. وما تخرى ببحثها عني أو اجتماعها بي؟ إنني يومئذ أجد أمي، ولكنني لا أجد ذلك الحنان الذي كنت في حاجة إليه عندها وأنا طفل لا حول لي ولا حيلة. بل إنني لأخشى أن أذهب إلى أبعد من هذا لأن الملجأ إذا كان قد فك تلك الأغلال التي وضعتها في يديّ فان عليّ واجباً آخر وهو أن أحطم هذه الأغلال وأحطمها معها..

وعندذلك صرخت إحسان قائلة: كفي يا حسن فحسبي من العذاب ما تحملته ثماني عشرة سنة وأنا لا يهدأ لي جنب ولا يطرف جفني، غمض حتى إذا اهتديت إلى حانوتك كان لي منه بعض السلوى وأنا أعيش بين هذه الأحذية التي لم يكن لي حاجة بها، وإنما لأنها تحمل أثر أصابعك. إنني أمك ...

ثم سقطت مغشياً عليها. فأسرع نحوها ينضح وجهها بالماء وينهضها ثم أقبل على جبينها يقبله وهو يهمس في أذنها والبكاء يكاد يخنقه:

سامحيني يا أمي! محمود مصطفى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

ص	
٥٠	السنة الأولى في مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والآذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة.

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد